مِلكَةُ الْخَيَالِ

تمهيد :

ترسّم الرّومنطيقيّون خطى روسّو* في إيمانهم بالخيال فصار عالم الخيال أحبّ إليهم من عالم الحقيقة المحدود ووجدوا في ما ذهب إليه روسّو إطارا مرجعيّا صار معه الخيال مبدأ ثابتا من مبادئ الفكر الرّومنطيقيّ. يقول روسّو« لو تحوّلت أحلامي إلى حقائق لما اكتفيت بها،بل لظللت أتخيّل وأحلم لا تقف رغبتي عند حدّ،لأنّي لا أزال أجد في نفسي فراغا لا يُشرَحُ ولا يملؤه شيء.إنّه نوع من انطلاق القلب إلى مصدر متعة لا علم لي بها، ولكنّي أحسّ بحاجتي إليها، بل إنّي لأجد في ذلك الانطلاق نفسه متعةً، لأنّه يغزو جوانب نفسي بشعور قويّ كلّ القوّة ، وبحزن عميق يجتذبني إليه».

عن محمّد غنيمي هلال
الرّومانتيكيّة ص 73 ط دار العودة بيروت 1986

بلغتُ خرائبَ تَدْمُرَ وقد نهكني المسيرُ، فاستلقيتُ على أعشابٍ نبتَتْ بين أعمدة سلّها الدّهرُ وأناخها [1] إلى الحضيضِ فبانت كأنّها أشلاءُ حربٍ هائلةٍ، وصِرْتُ أتأمّلُ بعظائمَ أُجِلُّها وهي مهدومةٌ منقوضةٌ عن صغائرَ قائمةٍ عامرةٍ.

ولمّا جاء اللّيلُ وتشاركت المخلوقات المتنابذةُ بارتداء ثوب السّكينة شعرت بأنّ في الأثير [2] المحيط بي سَيَالا [3] يصارعُ البخورَ عطرا ويُعادل الخمر فعلا، فصرت أجرعه محكوما وأحسّ بأيد خفيّة تتساهم [4] عاقلتي وتُثقل جفني وتحلّ نفسي من سلاسلها. ثمّ مادت الأرض واهتزّ الفضاء فوثبت مدفوعا بقوّة سحريّة ،فوجدتني في رياض لم يتخيّلها بشر قطّ مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجَمال، يمشين حولي ولا تلمَس أرجلُهنّ الأعشابَ وينشدن تسبيحةً منسوجة من أحلام الحبّ ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبيّة. ولمّا وصلت إلى منفرج قام في وسطه عرش مرصّع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها أنوار بلون قوس قزح وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهنّ عن ذي قبل ونظرن إلى جهة تنبعث منها رائحة المرّ [5] واللّبان فإذا بمليكة ظهرت من بين الأغصان الزّاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت عليه فهبط إذ ذاك سرب حمام كالثّلج بياضا واستقرّ حول قدميها بشكل هلال.

صار هذا والعذارى يغنّين مجد الملكة سُوَرًا، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدةً، وأنا واقف أرى ما لم تر عين إنسان، وأسمع ما لم تعه أذن بشريّ.

حينئذ أشارت الملكة بيدها فسكنت كلّ حركة، ثمّ قالت وصوتها يهزّ نفسي مثلما تفعل يد الموقّع بأوتار عوده ويؤثّر بمجموع ذاك المحيط السحريّ كأنّ للأشياء آذانا وأفئدة :«دعوتك أيّها الإنسيّ و أنا ربّة مسارح الخيال، وحَبَوْتُكَ المثول أمامي وأنا ملكة غابة الأحلام، فاسمع وصاياي وناد بها أمام البشر. قل إنّ مدينة الخيال عُرْسٌ يخفر بابه مارد جبّار فلن يدخله إلاّ من لبس ثياب العرس. قل هـــي

www.najahni.tn

جنّة يحرسها ملاك المحبّة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحبّ. هي حقل تصوّرات، أنهاره طيّبة كالخمر، وأطياره تسبح كالملائكة، وأزهاره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الأحلام. خبّر الإنس بأنّي وهبتهم كأسا يفعمها السّرور فهرقوها بجهلهم فجاء ملاك الظّلمة فملأها من عصير الحزن فجرعوها صرفا وسكروا. قل: لم يُحسن الضّرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست أناملهم وشاحي ونظرت أعينهم عرشي، فأشعيا نظم الحكمة عقودا بأسلاك محبّتي، ويوحنّا* روى رؤياه بلساني، ولم يسلك دانتي* مراتع الأرواح بغير أدلّتي، فأنا مجاز يعانق الحقيقة، وحقيقة تبيّن وحدانيّة النّفس، وشاهد يزكّي أعمال الآلهة. قل : إنّ للفكرة وطنا أسمى من عالم المرئيّات لا تُكدّر سماءه غيوم السّرور، وإنّ للتخيّلات رسوما كائنة في سماء الآلهة تنعكس على مرآة النّفس ليعمّ رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدّنيا.»

وجذبتني ملكة الخيال نحوها بنظرة سحريّة وقبّلت شفتيّ الملتهبتين وقالت : «قل ومن لا يصرف الأيّام على مسرح الأحلام كان عبد الأيّام.»

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرّؤية. ثمّ مادت الأرض واهتزّ الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتيّ هذه الكلمات: ومن لا يصرف الأيّام على مسرح الأحلام كان عبد الأيّام.

جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة
ص ص 119–122 مؤسّسة نوفل ط 2 ـ 1984

اعـــــرف

الأعـــــــلام :

* **روسّو(جان جاك)** 1721ـ 1778 : كاتب فرنسيّ وفيلسوف اجتماعيّ وُلد في جينيف. نادى بطيبة الإنسان وبالعودة إلى الطّبيعة. من مؤلّفاته : العقد الاجتماعيّ، إميل ، الاعترافات.تأثّرت بمبادئه الثّورة الفرنسيّة والأدب الرّومنطيقيّ.
* **أشعيا :** (القرن الثّامن قبل الميلاد) أحد كبار أنبياء بني إسرائيل الأربعة. قاوم آحاز ملك إسرائيل.تنبّأ بميلاد المسيح.
* **يوحنّا** : (توفّي نحو 100 م) قدّيس من رسل المسيح الإثني عشر وأحد الإنجيليّين الأربعة.ابن زبدى وأخو يعقوب الأكبر.يُعرف بالإنجيليّ والحبيب.نُفيَ إلى جزيرة بطمس ويُقال إنّه مات شهيدا.له إنجيل ورؤيا وثلاث رسائل.
* **دانتي** : (1265 – 1321) أعظم شعراء إيطاليا ومن رجالات الأدب العالميّ .خلّد اسمه بملحمته الشعريّة "الكوميديا الإلهيّة" وصف فيها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس في سفرة وهميّة قام بها بقيادة فرجيليوس وحبيبته بياتريس.

www.najahni.tn

الشـــــرح :

1 – أناخ : (ن،و،خ) فعل ثلاثيّ مزيد : أنخت البعير فاستناخ ونوّخته فتنوّخ وأناخ الإبل: أبركها فبركت.

2 – الأثير : هو عند الأقدمين الفلك التاسع وهو عند علماء الطبيعة مادّة لا تقع تحت الوزن تتخلّل الأجسام ويكون امتداد الصّوت والحرارة بواسطة تموّجاتها.

3 – سيالا : (س،ي،ل) نبات له شوك أبيض طويل إذا نُزع خرج منه مثل اللّبن.

4 – تتساهم : (س،هـ ،م) فعل ثلاثيّ مزيد : سهم وساهم القوم فسهمهم سهما قارعهم فقرعهم وساهمته أي قارعته. والسّهم النّصيب. وسهم يسْهَمُ سُهاما وسُهِمَ يسهم فهو مسهوم إذا ضمر.

5 – المرّ : ضدّ الحلو : مستحضر طيّب الرّائحة مرّ الطّعم يستخرج من شجرة شائكة من فصيلة لبخوريّات تنمو في الحبشة وجنوبي الجزيرة العربيّة.

فكّـــك

خضع النصّ لتركيبة سرديّة جعلته محكوما بمقاطع تغيّرت وَفقا لـ :

* حركة الزّمن،
* تدرّج الوقائع،
* تغيّر أوضاع الشّخوص.

استخرج من النصّ مقاطعه وبيّن أثر العناصر السّالف ذكرُها في تشكيل عناصر الخطاب القصصيّ .

حلّـــل

1 – في النصّ رحلة من الواقع إلى الخيال تكشف مواقف الرّومنطيقيّ من العالم عامّة والإنسان خاصّة:

* استخرج من النصّ آليّات الانتقال من الواقع إلى الخيال وحلّلها.
* تبيّن من خلال أطوار الرّحلة صورة الأديب الرّومنطيقيّ وحلّل مصادرها.

2 – استخرج من النصّ الأمكنة التي احتضنت الوقائع فيه محلّلا أشكال حضورها مبرزا مدى تعبيرها عن مواقف الرّومنطيقيّ ورؤاه.

3 – ما قيمة الحلم أو الخيال في دنيا الإبداع والإنشاء حسب رأي جبران وقد نطق بلسان ملكة الخيال في هذا النصّ؟

قـــــوّم

«من لا يصرف الأيّام على مسرح الأحلام كان عبد الأيّام » ما رأيك في هذا الحكم ؟ علّل موقفك بما تراه مناسبا من الحجج.

توسّـــع

1 – عُرف دانتي بملحمته الشعريّة الكوميديا الإلهيّة : عرّف بهذا الأثر وابحث عن المصدرين العربيّين الذين ثبت تأثّر دانتي بهما.

2 – استغلّ العديد من الأدباء والمفكّرين قديما وحديثا فنّ القصّة إطارا تعبيريّا ضمّنوه مواقفهم ورؤاهم الفنيّة والفكريّة والفلسفيّة ومن بينهم نذكر نيتشة ، محمود المسعدي ، ابن طفيل ، ابن شهيد الأندلسيّ وميخائيل نعيمة. إليك في ما يلي مجموعة من الآثار حاول أن تصلها بأسماء أصحابها لتبحث عن الإطار التاريخيّ أو الأدبيّ الذي احتضن أصحابها : حيّ بن يقظان– اليوم الأخير– هكذا تكلّم زارادشت– من أيّام عمران– التوابع والزّوابع.

www.najahni.tn

إضاءات

* حضر الحال في النصّ في مواطن مختلفة وبأشكال تركيبيّة متنوّعة وقد كان من الوسائل التي اعتمدها جبران في هذا النصّ لبناء مشاهد وصفيّة ساهمت في تأكيد انخراط النصّ ضمن آليّة كتابة رومنطيقيّة.ففي قوله مثلا: «فوثبت مدفوعا بقوّة سحريّة» يبدّد جبران معنى الفجئيّة الذي قد توحي به وتيرة الأحداث ليعلّل الحركة تعليلا عجيبا ينطق في ذاته بصلة الأديب بعالم ينأى عن العقل ويفارقه وهو ما يُعتبرُ فضلا عن تجسيده صورة الأديب ترديدا لموقف الرّومنطيقيّ من العقل ووسائل المعرفة.
والحال من المتمّمات التي تحتاجها الجملة لدعم قدرتها على التدلال إذ به يتّسع مجال الخطاب ليرسم صورة حول هيئة الاسم الذي يكون الوصف له. و لافرق بين أن يكون الوصف مشتقّا من الفعل ، نحو « طلع البدر صافيا » أو اسما جامدا في معنى الوصف المشتقّ ، نحو « عدا محمّدٌ غزالا ».
* «فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر».
شبّه جبران طلوع الفجر بصورة الإنسان الضّاحك المبتسم،ثمّ حذف المُشبّه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو«ابتسم» فالاستعارة مكنيّة أصليّة.

شذرات

إنّ مهنة النّاقد الغربلة.لكنّها ليست غربلة النّاس. بل غربلة ما يُدوّنه قسم من النّاس من أفكار وشعور وميول. وما يُدوّنه النّاس من الأفكار والشّعور والميول هو ما تعوّدنا أن ندعوه أدبا. فمهنة النّاقد،إذن، هي غربلة الآثار الأدبيّة لا غربلة أصحابها. و إذا كان من الكتّاب أو الشّعراء من لا يفصل بين آثاره الأدبيّة التي يجعلها تراثا للجميع وبين فرديّته التي لا تتعدّاه ودائرة محصورة من أقربائه وأصحابه فذاك الكاتب والشاعر لم ينضج بعد. وليس أهلا لأن يُسمّى كاتبا أو شاعرا. كذلك النّاقد الذي لا يميز بين شخصيّة المنقود وبين آثاره الكتابيّة ليس أهلا لأن يكون من حاملي الغربال أو الدّائنين بدينه.
إنّ شخصيّة الكاتب أو الشّاعر هي قدسه الأقدس. فله أن يأكل ويشرب ويلبس ما شاء ومتى شاء وحيث شاء. له أن يعيش ملاكا . وله أن يعيش شيطانا. فهو أولى بنفسه من سواه. غير أنّه ساعة يأخذ القلم ويكتب. أو يعلو المنبر ويخطب. وساعة يودع ما كتبه وما فاه به كتابا أو صحيفة ليقرأه كلّ من شاء، ساعتئذ يكون كمن سلخ جوانب من شخصيّته وعرضه على النّاس قائلا : « هذا هو يا ناس، فكر تفحّصوه .ففيه لكم نور وهداية. وهاكم عاطفة احتضنوها فهي جميلة وثمينة » و إذ ذاك يسوغ لي أن أحكّ فكره بمحكّ فكري. وأن أستجهر عاطفته بمجهر عاطفتي. وبعبارة أخرى، أن أضع ما قاله لي في غربالي لأفصل قمحه عن زؤانه وأحساكه. فذاك حقّ لي كما أنّ من حقّه أن يكتب و يخطب.

ميخائيل نعيمة، الغربال ص 13
دار نوفل الطبعة الخامسة عشرة 1991

www.najahni.tn